سعادة متأخرة

تبتسم ساخرة من نفسها لحلمها العظيم يتحقق بصورة غريبـة كبـاقي أحلامهـا، فالأقدار العابثة لا تحقق لها حلماً، حتى تطالبها بنزع واقع أحب منه إلى نفـسها، وهكذا الحياة ليس من طبعها تجريعنا شهد الأفراح أو علقم الآلام صرفا.

هاهو ذا غياث في غفوته.. فلتقف قليلاً نتملّى من وجهه الحبيب قبـل أن توقظـه لشرب الدواء.. إنه أثمن كنز ضمه فؤادها، أفتن حلم أبهج تهاويل أطيافها، أسـنى نور بدد وحشتها، ورغم ذلك فلن تنبس ببنت شفة، ولن تفوه بمـا يعلـن تـأجج عاطفتها نحوه.. ستقابل إشعاع عينيه الناطقتين الحزينتين ببرود من لا يـرى ولا يفهم.

إن في هذه المشاعر الخرساء لعذوبة مريرة، ولكن، أمـر منهـا أن تـذاع هـذه المشاعر.. تجربة قاسية تخوضها، عميقة القرار..

إنها ليست بالمرأة الحيرى المضطربة، وعقلها يعـرف بـين المجاهـل طريقـه وواجبه، ولكنها تخشى جموح قلبها في لحظة لا تقوى فيها على كـبح جماحـه، والقلب أرعن، لا يفهم لغة المنطق، يبرر جنونه ونشوزه ببلاغة تقنعه، ولكنهـا لا تجنبه سوء المصير.

وتلمس جبينه الملتهب براحة يدها وما كانت لتفعل لولا أنه نائم، وتستعذب إبقاءها قليلاً تلطّاف الحمى ببرودتها.

ولدهشتها تمسك بها يد غياث وتقربها إلى شفتيه مغمض العينين، وهـو يغمغـم: دعيني أقبلها، فتجذبها بسرعة وقد أحرجتها يقظته وتتناول قارورة الدواء.. وإذا به يفتح عينيه المخضبتين فتقول متجاهلة ما حدث:

-" الدواء يا غياث"

فيتنهد ويغمض عينيه ثانية وتترقرق بين أهدابه دمعة، فتنساب خارجة من الغرفة وترتمي فوق مقعد في الصالة..

ماذا فعل زوجها!. جمع في منزله بين النار والبارود افيأمن الإنفجار؟ ولكنـه لا يعلم شيئاً عن ذلك الحب القديم بينها وبين ابن أخيه.. المروءة هي التي دفعتـه أن

يرعاه مريضاً وحيداً، فرجا زوجته أن تمرضه. والثقة بنبلها وبشرف الشاب. لـم تترك له أدنى شك في ما ينجم عن الألفة والتقرب من مخاطر.

وتتنهد من أعماقها الغائمة. ما معنى هذه الثقة؟ والنفس البشرية مهما أوتيت مـن الثبات تضعف في بعض الأحيان.. إنها نفسها لا تعلم إلى أين سيقودها هذا الحب الذي لا أمل فيه.. إن للخشية الدينية قوة للمرء، أما هي فلا يحفظها من الميل مع الهوى سوى خلق قويم.. تأنف الخداع في أبسط مظاهره، فلقد توصلت بعد فتـرة مضنية من الحيرة والشك واليأس إلى الإعتقاد بأن العائلة خيـر الأنظمـة التـي عرفتها البشرية وأفضلها لسعادة الفرد.. ولن تحفظ العائلة بسوى إخلاص الزوجة واحترامها للرباط المقدس..

وفي فترة حيرتها وشكوكها ويأسها كثيراً ما راوددتها أفكار هدامة مخيفة، لـم لا يتمتع الأفراد في المجتمع بحرية تامة ما دامت الرغبة بطبيعتها متقلبة ملولة؟ وما كانت لتفكر على هذا النحو لو أنها وجدت في زوجهـا مـا يرضـي إحـساسها المشبوب وروحها الطموحةّ.. فحب الإستقرار كان دافعها الأول للـزواج بمـن يكبرها عشرين عاماً بعد خيبتها في حبها القوي لغياث، إثر ذهابه إلى كاليفورنيـا في طلب العلم.

وأجابها يوماً صوت عريق من وراء الأجيال: التجربة فاشلة وهذه الحريـة لـو أبيحت لكان الحب بهيمياً ولعادت بأسوأ النتائج.. فيخسر الإنسان ما يميـزه مـن طبيعة الإحساس بضرورة إرضاء ميوله السامية..

وإذن فالمرأة هي الكاسبة في النظام العائلي. فلقد حمل عنها الرجـل كثيـراً مـن الواجبات والمسؤوليات وأرضى لها هذه الميول.. وكل ما يبتغيه منها أن تخلـص له الود والوفاء فما هي حجتها لو خدعته؟

ولكن غياث!.. أتقوى على الصمود أمامه؟ إن حبها له أفقدها الروية والصبر، لقد تناسته في غمرة حياتها البيتية، أما وقد عاد فقد عاد هيامها العصوف.. وعـادت أطياف الحب تحوم حول المنزل لا تترك لها إلى الهدوء والطمأنينة سبيلاً.. هـل تبقى لزوجها المخلصة الشقية وتشهد قربها الحبيب الذي زلزل كيانها يحترق بهواه المكتوم؟ أم تجتاز كل حاجز لتتحد معه في هناء سرمدي؟ إن لكل سعادة ثمنـاً..

وثمن حبها لغياث التضحية بزوجها وبأطفالها.. أفتقوى على هجرانـه وهجـران فراخها الحبيبة، ولما يشتد عودهم بعد؟ مابالها الليلة تصرخ فيها رغبات الجـسد، وتعلو على مطالب الروح، وكل جانحة من جوانحها تشتاق غياثاً وتحن إليـه؟.. وتشعر بحركة خلفها فتلتفت وهي تنتفض ذعراً وغراماً..

-" غياث كيف تركت فراشك؟"

-" ألاتزالين غاضبة؟"

-" أنا غاضبة؟.. لا شيء من هذه الأوهام.. عد إلى فراشك يا غياث! ما بك؟ لقد غدوت طفلاً عنيداً لا تصغي إلى أوامر ممرضتك"

ويقف جامداً ويداه معقودتان على صدره.

–" هل شربت الدواء؟"

فلا يجيب!

إن الصمت ينتصر دائماً والكلام يعثر أحياناً ولقد انتصر غياث في صمته، وبلـغ الأسى منها مبلغه وهي تراه ينسحب إلى غرفته.

إنها تعلم أنه يكافح بعنف مرهق رغبته ويسمو بها عن شاردات هواه.. وتهزهـا رعشة لطيفة بانفعالها.. آه.. لو كانت له، تسعد بعطف قلبه وتسعده بحنانها..

وتشعر بقسوة الظمأ إلى الحب القوي.. العارم... وتشعر بعاطفة الأمومة تـسيطر على مسالك ضلالها وتردها إلى الصواب.. وتشعر بالخجل من مقابلـة إحـسان زوجها وكرمه بالجحود والنكران...

آه لو تستطيع إنصاف عاطفتها وواجبها، ولكن أنى لها وأحدهما لن يحيا إلاّ علـى أنقاض الآخر؟..

وتجد الحلّ.. ستجعل من هذا الحب عاطفة روحية سامية، جذوة من لهب مقـدس، لا تخمد.. سلّماً ترقى به معارج السماء.. أغرودة تتناغى بها الجوارح فتنبعث فيها أفراح الفردوس.

فليبق هذا الصراع الرائع رياضة روحية لكليهما وليبقى الحب المحظور يـستبيها بسنا نوره، ويفعم حواسهما بشذا عطوره، ليلفهما الخيال الخلاق بعباءته السحرية،

ولتهبه كل ماتملك من عواطف المحبة والحنان والرعاية، وليكن حبيباً نصيراً لها في جهادها، لا حبيباً عدواً يقف لها بالمرصاد..

* * *

وتشعر بنفسها هفهافة نشيطة، فتدخل الغرفة وترى غياثاً مستلقياً وعيناه شاخصتان إلى السقف فيستوي في فراشه قائلاً: "سأعود إلى الفندق غداً"

-" قبل أن تبدأ؟"

-" نعم لا يحق لي أن أبقى"

-" ولم يا غياث؟ إنك هنا في منزلك.. وأختك لن تتركك تبرحـه قبـل أن تـراك معافى"

وتتعمد إيراد كلمة الأخت في حديثها لما توجد بها من مشاعر نزيهة، فينظر إليها حزين النظرات واللهجة:

-" لست بريئاً من الأنانية "يا مها" إنني أعترف.. ذدتها عن نفـسي فـزادت بهـا تشبثاً.. ولست آمن معها عليك مني.. أقول الحقيقة والآلم يعتري جوانحي، فلقـد أصبحت لغيري، ومع ذلك فعواطفي لم تفتأ حدتها بل زادت نحوك ضراماً.. لقـد بلغت الغيرة من نفسي أن كرهت عمي لأنه حرمني منك.. لم تسرعت يا مها"؟ لم لم تنتظرينني حتى أعود؟. "لم تزوجت من هو في سن أبيك؟. أتـستبدلين بربيـع الحب بضعة أطنان، وسيارة فاخرة ومنزل أنيق؟ إنك لخاسرة في صفقتك والهناء الذي تنشدين أفلت منك إلى الأبد.. ولكن ما جدوى لومي وتبكيتي والمياه الجارية لن تعود إلى منبعها؟.

ويتسلل الغضب إلى لهجتها وهي تجيب:

-" غياث إنك لم تكن جاداً في مشاعرك.. ما معنى أن تتركني في ظلمة الجهـل بمقاصدك.. أفكنت تظن أنني أبقى طوال العمر متخبطة في بحور الشك؟ أفترانـي ملومة يا غياث؟ أفتصر بعد إلى إدانتي واتهامي؟

ويجيبها ببرود قاطع :"كلا"

وتقترب منه وقد ثارت شجونها:

-" غياث، لا أستطيع البعد عنك، ولا أحتمل غضبك علي.. كن لي الأخ الحبيـب العطوف، دعنا نستلهم جنة الروح ففيها أفراح لا تحد ولا تنضب"..

-" لا أستطيع.. أكبر خدعة لك ولنفسي أن أوهمك باقتناعي.. ما أقول لك أيتهـا المخادعة الحبيبة. هكذا أحبك.. كاملة لي.."

وتثور فيه أشواقه القاتلة ويقترب منها يحاول أن يضمها بعنف محموم.. ثم يرتـد فجأة.. وتقف هي مسمرة ذاهلة.. بينما يدوي رنين الجرس فتفـتح عينيهـا لتجـد نفسها فوق الأريكة.. لقد كانت في حلم براق قاس.. وتطالعها ابتـسامة زوجهـا المشرقة وهو ينسلّ إلى الداخل وبرفقته رجل..

-" إيه.. أهكذا تنتظرين الضيوف يا مها؟"

-" تأخرتما كثيراً.. فأخذتني سنة من النوم"

ويجيبها ضاحكاً.. "الحق عليه.. على غياث.. الذي لم تصل به الباخرة إلا الساعة"

وتنتفض المرأة ويخفق قلبها، وتدوي في أعماقها مشاعر الحلم متقطعة، صـخّابة وهي تحاول النظر إلى الضيف ولكنها إذ تتفرس في وجهه لا ترى فيه مـن هـز كيانها في الماضي، لقد أصبح غياث رجلاً آخر.. لا تخشى فيه الفتنة والغي!!

* * *